قصة حي بن يقظان
دراسة تحليلية ونقدية

إعداد :

الدكتور محمد أحمد موسى صوالحة

الدكتور تيسير رجب سليم النسور

This research takes the story of Ibn Tufail in three chapters : First، the life of Ibn Tufail. Second، the literature side which include the elements of art (place، time، characters، complex and solution) and the characters of art (extent، quotation، easiness، explicit، imagination and passion). Third، it's literature criticism. We don't mention the philosophical side in the story because it needs professionals.

يتناول هذا البحث قصة ابن طفيل في ثلاثة فصول ، حيث شمل حياة ابن طفل والجانب الأدبي في رسالته وتناول فيها العناصر الفنية في هذه القصة فشملت الزمان والمكان والشخوص والعقدة والحل كما تناولت الخصائص الفنية في رسالته من حيث الإطناب والاقتباس والسهولة والوضوح والخيال والعاطفة ثم قيمتها في ميزان النقد الأدبي إلى منزلتها الفلسفية لأنها بحاجة إلى متخصصين في هذا الجانب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

و الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبعد : فهذا بحث حول / الجانب الأدبي واللغوي في رسالة ابن طفيل / " **حي بن يقظان** ".

و قد قمنا بإعداده، ودراسته دراسة أدبية ونقدية حيث يتكون هذا البحث من ثلاثة فصول :

- الأول : حياة بن طفيل في إيجاز
- الثاني : الجانب الأدبي في رسالة حي بن يقظان
- الثالث : حي بن يقظان في ميزان النقد

وقصة حي بن يقظان لصاحبها ابن طفيل الذي صبّ أفكاره على عمقها في نطاق أدبي أخاذ، فقدم هذه القصة الفريدة التي كان لها أثر كبير في الاتجاهات الفكرية والإنشاءات الأدبية، مستخدما العناصر الأساسية في القصة، من حيث الشخصيات والحدث، والزمان، والمكان وصولاً إلى الحبكة والحل.

متمنين أن نكون قد أضفنا شيئاً جديدا إلى أدبنا العربي حول هذا العمل الأدبي المتميز.

الباحثان

د. محمد أحمد موسى صوالحة

د. تيسير رجب النسور

الفهرس

الفصل الأول :	حياة ابن طفيل
الفصل الثاني :	الجانب الأدبي في رسالة حي بن يقظان
	عناصر القصة :
	أولاً : الشخوص
	ثانياً : الحدث أو الحبكة
	ثالثاً : مكان الحدث وزمانه
	رابعاً : السرد القصصي
	خامساً : الأسلوب
	سادساً : المغزى
	الخصائص الفنية والأدبية في الرسالة
	أولاً : الاطناب
	ثانياً : الاقتباس
	ثالثاً : سهولة الألفاظ
	رابعاً : الخيال
	خامساً :العاطفة
الفصل الثالث :	حي بن يقظان في ميزان النقد الأدبي

الفصل الأول

ابن طفيل ٥٠٦ – ٥٨١ هـ:

أبو بكر محمد بن طفيل، ينتسب إلى قبيلة قيس. ولد في آشى قرب غرناطة سنة ٥٠٦، وعمل طبيباً خاصاً لحاكمها. له مؤلفات في الطب ورسائل في علم النفس وفي بعض نواحي الفلسفة، إلا أن الزمن لم يحتفظ منها إلا برسالته : " حي بن يقظان ".

كانت له آراء حولَ العالم، وقد قسّمَه قسمين : عالم ما فوقَ القمر وعالم ما تحت القمر،

و لقد بحثَ طبيعة الموجودات في كلا العالمين. وجعلها في عالم ما تحت القمر : حيّة ٍ، ولا حية.

أما العالمُ السفلي فقد قسّمه إلى أجسام جامدةٍ، وأجسامٍ حيّة، وبعبارةٍ أخرى إلى أجسام لا نفْسَ لها وإلى أجسامٍ ذات أنفس، وتأمّل الأجسامَ تلك فرآها تتفق في بعض الصفات وتختلف في بعضها الآخر [١]. لقد تأمّلَ أنواعَ الحيوان كلها فرآها تشبهُ بعضها بعضاً في الأعضاء الظاهرةِ والباطنةِ والادراكاتِ، وتتفّقُ في الإحساس وتتغذّى وتتحركُ بالإرادة إلى أي جهةٍ شاءت. وهو يشيرُ بذلك إلى النفّس الحيوانّية الحساسة. وقارن هذا مع جنس النبات في التغذّي والنمّو، لكن الحيوانَ يزيدُ على النّبات بالحسّ والإدراك، أي أن النّفسَ الغاذيّة هي عامّةٌ مشتركة

(١)عويضة كامل ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، ص ٩٦.

بين النبات والحيوانِ والإدراك، أما النّفسُ الحساسةُ فلا توجدُفي النباتِ إنما توجد في الحيوان [١].

و تحدث ابنُ طفيل عن شكل الأرضِ الكروي، ودلّل على ذلك بانّ الشّمسَ والقمرَ وسائر الكواكب تطلع من جهة الغرب[٢]. وكان قد استفاد في بعض المجالاتِ الخاصّةِ بالدراساتِ الفلكيّة من الفلاسفةِ الذين سبقوه أمثال : أفلاطون وأرسطو [٣].

له مؤلفات عدة وصلنا منها :

١. "كتاب أسرار الحكمة المشرقية. منه نسخة في الاسكوريال، وطبع بمصر سنة ١٨٨٢م. "

٢. " رسالة حي بن يقظان.. وترجمة إلى اللاتينية والإنجليزية وغيرهما " [٤]

عمل في التدريس والطب في غرناطة ثم تولى الحجابة (الوزارة) فيها. ثم اتصل ببلاط الموحدين في إفريقيا وأصبح من المقربين لأبي سعيد بن عبد المؤمن والي سبتة وطنجة، وفي عهد أبي يعقوب يوسف نحو (٥٥٨ هـ) أصبح ابن طفيل طبيبه الخاص، ثم طلب إليه أن يعتزل هذا المنصب، ولكنه ظل يتمتع بالحظوة في بلاط الموحدين إلى حين وفاته في مراكش سنة ٥٨١ هـ.

و في ظل فلسفته العميقة ونطاق تفكيره السليم الخصب، وأدبه الرفيع وأسلوبه الرائع، أعطانا ابن طفيل نتائج تجربته وحصاد تفكيره في ثوب قصة رائدة وهي "

(١)الكتاب نفسه ، ص ٩٨.

(٢)يوحنا قمير ، فلاسفة العرب (ابن طفيل) ، دار المشرق ، ط ٢ ، د. ت ، ص ٣٩ – ٤٢.

(٣)عاطف العراقي ، الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٥ م ، ص ١٠٠.

(٤)جرجي زيدان : تاريخ أدب اللغة العربي – ج٣ – مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٦٧ – ص ١٠٩

حي بن يقظان "، ويقول الدكتور عمر فروخ " وتدل هذه القصة على براعة ابن طفيل في عدد كبير من العلوم إلى جانب أسلوب أدبي بارع، وابن طفيل أو من ساق الآراء الفلسفية والعملية سياقاً قصصياً " (١)

كان أديبا فذا إضافة إلى كونه عالماً وفيلسوفاً، فقد كان أديباً رقيق المشاعر محباً للأدب والفن فكانت له محاولات في نظم الشعر منها هذه الأبيات في العزة الإلهية(٢):

المت وقد نام المشح وهومّا، وأسرت إلى وادي العقيق من الحمى (*٣)
وجرت على ترب المحصب ذيلها فما زال ذاك الترب نهباً مقسماً (٤)
و لما رأت أن لا ظلام يجنها وأن سُراها فيه لن يتكتما (٥)
نضت عذبات الريط عن حر وجهها فأبدت محياً يدهش المتوسما (٦)
فكان تجليها حجاب جمالها كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما.. (٧)

لقد كانت مكانة ابن طفيل تسمو لدى السلطان، وذلك بفضل علمه وأفكاره، فقد أثر تأثيراً كبيراً على سلطانه وجعله يتذوق العلوم والفلسفة والأدب،

(١)عمر خروج : تاريخ الأدب العربي – ج ٥ – ص ٤٧٠.
(٢)المرجع السابق ص ٤٧١.
(*)المت : (العزة الإلهية) : زادت عرضاً، اقتربت.المشيح: المعرض بوجهة. هّوما: نام نوماً خفيفاً.
(٤)نهباً مقسماً : يتنازعه الناس حرصاً على الحصول عليه (لأن مرورها بذلك المكان جعل له رائحة طيبة)
(٥)يحنها : يسترها.
(٦)نض : رفع (كشف)، العذبة : طرف من العمامة يتدلى إلى جانب الرأس، الريط : الحرير، المتوسم : المتطلع
(٧)التجلي : الظهور، حجاب : غطاء، يعشى: يضعف، الطرف : البصر.

وجعل بلاطه يموج بالفلاسفة والمفكرين، وليس أنجح من علم يشجعه السلطان فيتذوقه الجمهور، وفي هذه البيئة الناضجة اكتشف ابن طفيل الشاب المفكر ابن رشد وقدمه إلى السلطان، وأحاطه بتوجيهاته، وحبب إليه شرح كتب أرسطو التي كانت سبباً في شهرة ابن رشد وعلو مكانه وانتشار صيته في الآفاق كفيلسوف كبير من فلاسفة المسلمين، وهذا بفضل ابن طفيل بالطبع " وابن طفيل ليس مجرد طبيب ماهر أو فيلسوف مرموق ذا فضل وعلم وكياسة، وإنما هو أديب رقيق وشاعر أنيق" (١)

و أن يكون ابن طفيل شاعراً وأديباً إضافة إلى كونه عالماً وفيلسوفاً، ليس أمراً غريباً على من عاش في وادي آش، منبت الشعراء والأدباء، حيث أنجبت تلك البلدة العدد من الشعراء والأدباء للأندلس وهي بلدة قرب غرناطة عرفت بجمال طبيعتهاو مناخها.

كذلك عاش ابن طفيل في قرطبة وأشبيلية، لذلك لقب بالقرطبي وأحياناً الإشبيلي وتارة بالأندلسي، كما لقب بالمراكشي لأنه توفي في مراكش سنة (٥٨٠ هـ).

يورد ابن طفيل خبرين في ولادة حي بن يقظان، خبر أول يقول بأنه وَلد تولداً جسدياً مألوفاً من أم هي شقيقة ملك إحدى جزر الهند تحت خط الاستواء، ومن أب هو قريب لها اسمه يقظان، كانت شقيقة الملك قد تزوجته خفية عن شقيقها الملك، فجعلت الطفل في تابوت وألقته في البحر، ثم على ساحل جزيرة مجاورة هي جزيرة الوقواق وصادف أن مرت في الموقع الذي استقر فيه التابوت

(١)مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي وموضوعاته وفنونه – ص ٦٨٦.

ظبية، كانت تبحث عن طلاها الذي فقدته فسمعت صوت بكاء الطفل فاتجهت نحوه، وعثرث على الوليد حياً فأرضعته واحتضنته.

أما الخبر الثاني عن ولادة حي فيقول إن حياً قد تولد تولداً ذاتياً بالنشوء الطبيعي، وإن أصله طينة قد تخمرت في بطن أرض جزيرة الواقواق، وأن تلك الطينة قد احتوت على نفحات منقسمة إلى قسمين، بينهما حجاب رقيق، وممتلئة بجسم لطيف هوائي تعلق به الروح التي هي من أمر الله ثم تمخضت هذه الطينة عن جسد طفل بادر إلى الاستغاثة عند اشتداد جوعه فلبته ظبية كانت فقدت طلاها، وأرضعت الظبية الطفل وحضنته.

أما المراحل السبع التي مر بها حي بن يقظان فيمكن إجمالها على النحو التالي :

١. المرحلة الأولى من حياة حي مرحلة إرضاع الظبية لحي وحضانتها ورعايتها له، حتى إذا بلغ السابعة كان قد تعلم محاكاة أصوات الحيوانات وألف عدداً منها، وتعلم ستر عورته واستعمل العصا للدفاع عن نفسه وحماية طعامه.
٢. المرحلة الثانية، في حياة حي تبدأ بوفاة الظبية، فيقوم حي بتشريحها لمعرفة سبب وفاتها، وبتشريح الظبية بدأت تتكون عند حي المعرفة عن طريق الحواس والتجريد، فتعرف إلى مختلف أعضاء الجسد ووظائفه والجسم وما يحركه.
٣. في المرحلة الثالثة، كان حي بن يقظان قد اكتشف النار وتعرف إلى استخدامها وطريقة إعدادها، ثم توصل إلى استنتاج وجود الروح الحيواني في الجسم.

٤. في المرحلة الرابعة، أخذ حي يتصفح جميع الأجسام التي هي في عالم الكون فتعرف إلى الوحدة والكثرة في الجسم والروح، واكتشف اتفاق الكائنات في المادة واختلافها في الصورة، ثم تصنيف الأجسام إلى ثقيل وضعيف، ثم لاحظ الأجسام وتفهم علة الحوادث، وتنتهي هذه المرحلة وقد بلغ الثامنة والعشرين من العمر.

٥. و في المرحلة الخامسة، يرصد حي الفضاء، متطلعاً إلى مافيه من كواكب وأفلاك، فيرى الكواكب أجساماً كلاً منها متناه في كروية الفلك.

٦. و في المرحلة السادسة، توصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد وتختلف عنه بالمصير، وفي التوق إلى واجب الوجود (الخالق سبحانه وتعإلى)، وأن الخلود للنفس التي تدرك واجب الوجود، أما التي لا تدركه فمصيرها الفناء. ثم يقف حي على سرد السعادة، وهنا تتداخل هذه المرحلة مع المرحلة السابقة في حياته.

٧. في هذه المرحلة يدرك (حي) أن سعادته وفوزه من الشقاء وإنما هما في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود، والتي تحصل من خلال المشاهدة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود، وأخذ حي يفرض لنفسه حدوداً لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها، فكان أن أخذ لنفسه من الغذاء ما يكون بقدر حاجته وما يسد خلة الجوع، ولا يزيد عليها، ثم ذهب للعمل الثاني وهو التشبيه بالأجسام السماوية من حيث دورانها وتلألئها، فتنبه إلى العناية بنظافة جسده،و بقي (حي) على حالته حتى أناف على الخمسين عاماً، وحينئذ اتفق له لقاء

وصحبه (إسال) الذي جاء من جزيرة قريبة إلى جزيرة الوقواق [1]طالباً العزلة باحثاً عن مكان لدينه، وبعد أن آنس كل منهما بالآخر، وبعد أن علَّم إسال حياً القراءة والكتابة، روى كل منهما أطوار حياته، ثم شرح حي لإسال كيف أدرك المعرفة بالحواس والتجربة والمجهود العقلي، وكيف توصل إلى الحقائق الكونية في العلة للعالم والنفس وروحانيتها وخلودها مما يتفق وباطن الشرع.

و يروى (إسال) (لحي) أنه كان وزيراً لملك الجزيرة التي خرج منها والتي انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين. وأن (سلامان) الملك كان يحتفظ بالظاهر ويبتعد عن التأويل ويقف عن التصوف والتأمل، فتعلق بملازمة الجماعة ورجع القول فيها، وكان ذلك كله يخالف رأي (إسال) وكان اختلافهما في الرأي سبب افتراقهما، ويتفق (حي) و(إسال) على أنه رغم اختلاف طريق كل منهما عن الآخر، فقد كانت النتيجة التي وصلا إليها واحدة، ثم يتفقان على الذهاب إلى جزيرة (سال) علهما يفلحان في هداية أهلها إلى الحقائق الكبرى التي تتجاوز حدود الشريعة دون أن تخالفها، وإلى الحب الذي يقود إلى القرب من الله والفناء فيه ويصلان (حي) و(إسال) إلى الجزيرة الأخرى حيث الملك وحيث الناس، ويبذل (حي) قصارى جهده لهداية الناس، ولكن جهوده تذهب أدراج الرياح، فيرجع (حي) و(إسال) مرة ثانية إلى الجزيرة المقفرة، ويستأنفان حياتهما من جديد، حياة التعبد الخالص، والتأمل الصافي، بينما ظل الناس في خيالاتهم وتخبط عقائدهم.

(١)الوقواق : اسم وهمي لجزيرة ورد ذكرها عند المسعودي وابن طفيل – وانها في رسالة حي بن يقظان لإبن طفيل ص ١٢١ وص ١٢٣.

في هذه القصة يتوصل الإنسان " حي " إلى جملة الأساليب، التي تساعده على التحرر من أثقال البدن، وتعينه في التطهر البدني والروحي، فكان يتشبه بالأجسام السماوية، التي كان يعتقد أنها بريئة عن الجسمية، وانها اقرب الموجودات إلى واجب الوجود، فلم يكن (حي)يتناول من الغذاء إلا ما تدعو إليه الضرورة في بقاء الروح وعلى غرار النجوم، التي تمنح الدفء للأحياء جميعاً، كان يتفقد أحوال النباتات والحيوانات ويرعاها.

و كان يتشبه بالكواكب في التزام ضروب الحركة على الاستدارة، فتارة يطوف بالجزيرة، وتارة يدور حول نفسه حتى يغشى عليه.

ويمكن القول إن قصة " حي بن يقظان " تتمتع بمآثر أدبية لا يرقى إليها الشك، فهي عمل فني محكم البناء، مكتوب بلغة جلية ودقيقة، لا تخلو من الخفة والطلاوة.

الدراسة :

تكاد قصة حي تكون أكثر التجارب القصصيةِ العربية القديمة حشداً للأفكار الفلسفية. وقد جاء العنصر القصصي متناسقاً متعادلاً في أجزاء القصة كلها، وهو يختلط بالعنصر الفلسفي من أول الكتاب إلى آخره. بحيث استطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب الذي يفيض ابتكاراً وقوة شعرية أن يخلق منها أثراً من أعظم ما أطلعته العصور (١).

تتحدد قيمة هذه القصة من خلال موضوعها الفلسفي بالنسبة للموجودات الكونية، وايضاً، من خلال " ما يتميز به بناؤها من ابتكار وما تتسم معالجتها به من براعةٍ، بحيث يمكن اعتبارها قصة ناضجة فنياً نضجاً تاماً، وعلى مستوى أدبي رفيع، ليس لعصرها، بل بالنسبة لكل زمان ومكان (٢).

و قد فرض هذا البناء أن تكون دراستها حسب التقسيمات التالية :

اولاً : العنوان :

أكثر ما يثير الانتباه في هذه القصة عنوانها : "حي بن يقظان "،فماذا عنى الكاتب به ؟

و هل جاء لقصد ما، أم عفو الخاطر ؟

كثرت الدراسات التي حاولت أن تحلّل هذا العنوان، وأن تقع على ما يريده المؤلف منه، وكما يرى عبدالله الفيفي (٣). يكون حيٌ رمزاً لآدم، ويكون

(١)عبدالله الفيفي، في بنية النص الاعتباري (قراءة جيولوجية لنبأ حي بن يقظان)، أبحاث اليرموك، سلسة الآداب واللغويات، إربد، مج ٧، ع ١، ١٩٩٩ م، ص ١٢.

(٢)فاروق السعد، ابن طفيل حي بن يقظان / ص ٢٨

(٣)عبدالله الفيفي، في بنية النص الاعتباري (قراءة جيولوجية لنبأ حي بن يقظان)، أبحاث اليرموك، سلسة الآداب واللغويات، إربد، مج ٧، ع ١، ١٩٩٩ م، ص ١٢.

يقظان رمزاً لله تعالى ولعلّه نظر في ذلك إلى وصفهِ باليقظة (لا تأخذه سنة ولا نوم) [١]

أما كامل عويضة [٢] فيرى أن حياً رمز إلى العقل الفردي الخاص بكل إنسان على حدة، أو العقل الجماعي، أي الإنساني المطلق. وبناءً على هذا فإن تطور الإنسان لا يعود إلى عقل فردي ولكنه يرجع إلى تضافر العقول الإنسانية.

حتى لا نستطرد كثيراً في تحليل العنوان يمكن أن نوضح هذا الرمز : بأن حياً يرمز إلى الإنسان الحي بأفكاره وقيمه ودينه وعاداته، أما يقظان فيرمز إلى الذي يقضي وقته يقظاً بعبادة الله، وإقامة شرائعه، ويأتي هذا الرأي من قوله تعإلى (وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون) [٣] خاصة وأن حياً فرض على نفسه – كما سبق ذكره – حدوداً لا يتجاوزها الزهد.

ثانياً : الموضوع :

تناولت القصة قضية مهمة شغلت ذهن الكاتب وأرّقت باله، وهي البحث عن حقيقة هذا الوجود، كما وقفت عند رؤية المؤلف في البحث عن وجود هذا الكون وموجوداته، حتى استطاع في النهاية الوصول إلى الحقيقة.

و جاء ذلك في ثلاثة أقسام وخاتمةٍ، القسم الأول بعنوان تمهيدات، والقسم الثاني يقدم نشأة لحي ويصور نموه البدني والعقلي في الجزيرة المنعزلة، وينقل

(١)البقرة / آية ٣٥٥

(٢)كامل عويضة، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ٤٥ – ٤٦

(٣)الذاريات / آية ٥٦

القسم الثالث قصته مع(أبسال) و(سلامان)، ثم تأتي الخاتمة، " حيث يتوجه الكاتب إلى قارئه مفسراً دوافعه " (١).

و قد تشكلت القصة في قالب لغوي ينبئ بشاعريةٍ مليئة بالرموز والطقوس اللغوية الخاصة التي تحتاج وقتاً كي تفهم، فعند تتبع هذه القصة نجده يركز على كثير من الألفاظ التي تشطح بنا إلى أفقٍ عال ورحب، وتشير إلى غير المحسوس، مثل : فتخيل، الفطرة، الحدس، الخاطر.

فهذه الكلمات تشير إلى أن الكاتب حاول إيصال فكرة ما، وهي : أنّ العبادات تكون من خلال الروح والاتصال الروحي وكأنه يصعد بنا إلى عالمه العلويّ.

يظهر لنا ذلك من خلال دعوته إلى ما وراء الطبيعة كما في قوله : " بل الذي نعنيه بإدراك أهل النظر، ما يدركونه مما بعد الطبيعة " (٢).

من أجل هذه الفكرة حاول التأثير على القارئ، فلجأ إلى الرمز باستخدام الحيوان والشمس، مبتعداً عن الالفاظ التي تميل إلى الإقناع، أو تطرق القلب والعقل.

و لم يكن هذا الرمز إحالة مباشرة إلى المفاهيم المجرّدة، إنما كان نواة فاعلة تمنح الصورة أبعاداً خاصة، فلو أخذنا لفظ آدم، نجده يتكرر في القصة ليرمز إلى الإنسان وبشكل خاص الذكر، وهذا شيء طبيعي يعرفه الجميع، أما غير الطبيعي والذي يشكل رؤية خاصة بالكاتب، فهو متصل بطاعة الله التي تمثل

(١)فاروق السعد، ابن طفيل حي بن يقظان / ص ١١٠

(٢)رضوى عاشور، حي ين يقظان، فصول، مج ٥، ع ٤، يوليو – أغسطس – سبتمر – ١٩٨٥، ص ٢١١

الوسيط بين العباد وبين خالقهم، وهذا ينسجم مع عنوان القصة حيث تعني كلمة " آدم " الإنسان الذي يحيا بالإيمان وهذا ما عناه العنوان :حي بن يقظان[1] كما سبق وتحدثنا.

أما كلمة " الظّبية " فإنها تمثل عنصر الحيوان الأليف، ومنه يشير إلى الأم الرّؤوم، إلا أنها تمثل عناصر الكون التي من خلالها يمكن أن يصل الإنسان إلى معرفة الله تعالى، وتأتي هذه الرؤية من تشريح الظبية وهذا يتطلب الإجابة عن السؤال : لماذا قام بتشريح الظبية ؟

إذا تصفّحنا الرسالة نجدها تبحث في العلاقة بين الإنسان وخالقه، لماذا خُلق الإنسان؟ من خلقه ؟ من دب الروح فيه ؟ أسئلة تبحث عن إجابة في قصة حي. جاءت الظبية لتشكل مشروعاً للبحث عن معرفة الله خاصة، وهي تمثل عنصراً كونياً حيّاً، فيه الروّح : سر الحركة، لذا قام حيٌّ بتشريحها لمعرفة سرّ هذه الروح البعيدة التي لا يعرف سببها إلا الله تعالى.

و على ذلك فإن الظبية نموذج مثالي لدى حيّ، ويظهر ذلك من خلال الدقة العظيمة التي تناول بها فكرة البحث عن الروح والإجابة عما تثيره بداخله من أسئلة، من خلال التشريح : مهنة المؤلف كطبيب.

و تمثل لفظة الشمس مظهراً كونياً آخر، يمد الأرض بطاقة حرارية هائلة استدعت حياً للتفكير بها، والإشارة من خلالها إلى ذلك الأثر التي تتركه على الإنسان وعلى الطبيعة، إذ تمنح الإنسان الحياة وفي الوقت نفسه، تشكل مظهراً من نظام كوني دقيق (لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر) [2]، ويمكن

(١)انظر / ص ٨ من هذا البحث

(٢)سورة يس / آية ٤٠

ربطها بالبحث عن مدبر هذا الكون الكبير في قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر) (١).

تتجلى حقيقة الشمس بأنها مظهر كوني يبحث في حقيقة الوجود الذي أبدعه الخالق، فكانت نموذجاً آخر إلى جانب الظبية للبحث عن سريرةِ الكون والوجود، وتكون في الوقت ذاته دليلاً آخر على الدقةِ المتناهية في صنعهِ وإبداعه.

ثالثاً : الشخوص :

تكاد تكون شخصية حي الشخصية الأكثر وجوداً في أحداث القصة، فعلى الرّغم من وجود شخوص آخرين إلا أن ابن طفيل حاول أن يبحث أفكاره عن طريق شخصيةٍ محورية واحدة وهي شخصية (حي) التي أكسبها صفة الواقعية على الرغم من أنها في المنطق تبدو غير قابلة للتصديق وبعيدة عن الواقع (٢). وتتطور هذه الشخصية مع مرور الأيام ويتطور الحدث بتطورها، لتصبح بمثابة قناع موَّه ابن طفيل بوساطته على تجربته الفكرية، ورؤيته الإشراقية العميقة والأصيلة (٣).

رابعا: الأسلوب السردي :

جاءت الأخبار في القصة متتالية مترابطة، مع أن الحدث الرئيسي فيها فقدان الطفل ونموه في ظل الظبية إلى أن ماتت فقام بتشريحها، ثم جاء درس الحيوان والنبات والجمادات.

هذه القصص المتوالية والتي تتوالد عن بعضها، وصفها ابن طفيل في قالب سردي جميل يقوم على توالي الأحداث وانشطارها معتمداً في ذلك على الجمل الطويلة.

(١)سورة الأنعام / آية ٧٨

(٢)عبدالله الفيفي، في بنية النص الاعتباري / ٢٠

(٣)رضوى عاشور، حي ين يقظان / ٢١٣

من خلال تصفح هذه القصة لا نجد اهتماماً واضحاً من كاتبها بالحدث الرئيسي، فلم نجد إشارات كبيرة إليه إلا في بداية القصة، إذ ينزع الكاتب إلى الفلسفة والطب، مبتعداً عن الخيال والخرافات. وكأن الكاتب يسعى لإشراك القارئ في التفكير بهذا الكون وموجوداته، فنراه يوقف الحدث الرئيسي ويجعل التنامي في أحداث الفلسفة والطب.

إنّ إيقاف الحدث ونموّ أحداث أخرى، يعني أنه يمكن اعتبار هذه القصة مجموعة قصص مركبة إلى جانب بعضها، ولا رابط بينها، فإن سقطت إحداها لا تؤثر في الأخرى ولا تحدث خللاً في بناء القصة الكبير.

وأكثر ما يمتاز به هذا النص أسلوبه في عرض الأحداث إذ يعلم الجميع أن الإنسان أو الحيوان يتعطل عن الحركة إذا فقد الرّوح، ولكن ابن طفيل نقل تلك الفكرة القاسية بأسلوب أدبي بليغ، بحيث حول الخبر إلى نص أدبي في غاية الجمال.

بيد أنه ينطوي على إيقاع داخلي يمكن وصفه بصورة مباشرة بالحركة " الفعل "، مما جعل القصة أقرب إلى الأدبيّة والشعرية خاصة، لقصيدة النثر التي يميزها بالدرجة الأولى الإيقاع الداخلي يقول حي :

و متى عاد إلى اللبن أروته

و متى ظمئ إلى الماء أوردته

في هاتين العبارتين إيقاع زمني في نطق العبارة، ويتواصل هذا الإيقاع بالكلمات ذات الدلالات المادية التي تدل على حاجة الطفل الماسة.

أروته، أوردته : توافق في نطق الكلمتين، وتوافق في المعنى المحسوس.

أما على صعيد الجملة، فنجد المؤلف يجعل توافقاً كبيراً في إيقاعها من حيث زمن نطقها، فلما كان البيتُ الشعري يقطع عروضياً تقطع الجملة تقطيعاً ايقاعياً.

متى ضحا : ظللته

متى حضر : أوفاته

أو مثلاً

متى / عاد إلى / اللب /أروته

متى / ظمئ إلى / الماء / أوردته

تحتوي هذه القصة على عناصر القصص الأدبي فهي تملك أدواته، إذ مالت بحديثها إلى اللغة الشعرية، وابتعدت عن السرد التاريخي الذي يقربها من السيرة الذاتية، فقد أخذ كاتبها يتحدث بلغة الرمز الذي ارتفع بنا إلى عالم آخر لمعرفة بداية القصة وصولاً إلى نهايتها، بأن أخذ يصور من خلال خياله الرحب كيفية البحث عن سر الوجود وكيفية الحركة داخل الجسم.

مما يفضي إلى أن نصا قام على الخيال الواسع فقد وظف المؤلف شخوصاً تتحدث وتتحرك داخل النص، وكان أبرزها شخصية (حي) التي فكرت ملياً بهذا الوجود وهذا النظام الكوني العام، وعلمت أن هذا الجسد لا يساوي شيئاً إذا سلبت منه الروح.

الفصل الثاني

الجانب الأدبي في رسالة حي بن يقظان

في قصة "حي بن يقظان " جوانب نضج قصصي في الشرح والتبرير والإقناع، على الرغم من أن القالب القصصي فيها ليس سوى إطار لذكر الآراء الفلسفية الكثيرة

المنبثقة في النص، وبراعة المؤلف، تتجلى في مزجه الآراء الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبي، وفي جهده لتبرير تلك الآراء منطقياً وفنياً "[1]وهذا ما يجعل كثير من النقاد ينظرون إليها على أنها أفضل القصص التي قدمت في العصور الوسطى، ليس على مستوى الأدب العربي فحسب، بل على مستوى الأدب الأوروبي كذلك.

وقصة حي بن يقظان، لصاحبها ابن طفيل " الذي صب أفكاره على عمقها في نطاق أسلوب أدبي أخاذ، فقدم هذه القصة الفريدة الطويلة التي كان لها الأثر الكبير على كثير من الاتجاهات الفكرية والإنشاءات الأدبية " [2] وإذا أردنا تحليل قصة حي بن يقظان كقصة ذات بناء فني متكامل نجدها كذلك من حيث توفر عناصر القصة الأساسية وهي الشخصيات، والحدث وتطوره وصولاً إلى الحبكة والحل، وتحديد المكان والزمان في القصة.

عناصر القصة :

اولاً : الشخوص :

لقد كانت شخصية حي بن يقظان هي العنصر الأبرز في القصة، حيث صورها لنا ابن طفيل خير تصوير منذ مراحل الطفولة إلى الشباب، وما بعد ذلك، فكانت تبدو هذه الشخصية ذات جاذبية وحضور على مدى أحداث القصة، لأنها المتحكم بالأحداث وسيرها، وشخصية حي فهي تنتمي إلى الشخصيات التي يطلق عليها اسم " الشخصيات النامية "، لأنها تأخذ ملامحها بالوضوح تدريجياً، وتتطور وتتفاعل مع الأحداث مؤثرة فيها ومتأثرة، حيث نجد أنفسنا نسير مع الشخصية منذ ولادتها ومع مراحل نموها وتطورها جسدياً

(١)محمد غنمي هلال : النقد الأدبي الحديث – دار النهضة – مصر – ١٩٩٧ – ص ٤٩٧
(٢)مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي وموضوعاته – ص ٧٠٢

وفكرياً، فيقول ابن طفيل " ولم يكن بتلك الجزيرة شي من السباع العادية، فتربى الطفل ونما وتغذىّ بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان، وتدرج في المشي وأثغر" (١)

قام ابن طفيل في تصوير معالم شخصية (حي) من خلال الوصف " وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنن في وجوه حيله، واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها، واحتذى بها، واتخذ الخيوط من الأشعار..." (٢)

أما حديث النفس الداخلي عند (حي) وهو ما يسمى حديثاً " تيار الوعي " أو " المونولوج الداخلي " كانت من الطرق التي استخدمها ابن طفيل لتوضيح أفكار شخصيته وملامحها، فيظهر الحديث الداخلي مثلاً كما في " وجرد القلب فرآه مصمتاً من كل جهة، فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة ؟ فلم ير فيه شيئاً : فشد عليه يده، فتبين له أن فيه تجويفاً، فقال : لعل مطلوبي الأقصى إنما هو في داخل هذا العضو، وأنا حتى الآن لم أصل إليه " (٣) وهذا حديث آخر يدور في نفس حي محاولاً معرفة سبب وفاة الظبية " وأما هذا الدم فكم مرة جرحتني الوحوش في المحاربة فسال مني كثيراً منه فما ضرني ذلك ولا أفقدني شيئاً من أفعالي. فهذا بيت ليس فيه مطلوبي " (٤)

و إذا أردت أن أصف شخصية (حي) أجد أنها تميزت بالذكاء والفطنة والبحث عن حقائق الأمور، وجراءة في اكتشاف ما هو غامض من أسرار الكون حوله، وقدرته على التكييف مع البيئة التي وجد بها، إضافة إلى القوة الجسدية التي تميز بها " فاشتد في العدو، واشتد حي بن يقظان في أثره حتى التحق به – لما كان أعطاه الله من القوة والبسطة في العلم والجسم –

(١)حي بن يقظان / ص ١٢٨
(٢)حي بن يقظان – ص ١٤٦
(٣)ابن طفيل " حي بن يقظان " – ص ١٣٧
(٤)حي بن يقظان – ص ١٣٧

فالتزمه وقبض عليه، ولم يمكنه من البراح " [١]" وبما ركب الله تعإلى به في طباعة من الجراءة والقوة " [٢] وأرى أن ابن طفيل من خلال "حي " استطاع عرض أفكاره محاولاً إقناع العقل والفكر طالباً التأمل والنظر بعمق لحقيقة الأمور في الحياة.

و الشخصية الثانية التي تظهر في قصة حي بن يقظان هي شخصية (إسال) وهي شخصية لا تتطور مع الأحداث، ولكنها تؤثر فيها، حتى نكاد نعتقد لبعض الوقت أنها أصبحت الشخصية السائدة " فبقي إسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل، ويعظمه ويقدسه، ويفكر في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلا ينقطع خاطره، ولا تتكدر فكرته، وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد بها جوعته " [٣]

و تظهر براعة ابن طفيل مرة ثانية، حين يجعل حي يسيطر على الأحداث من جديد، بعد أن يلتقي بإسال.

و " إسال " في القصة هو رجل متعبد زاهد، يسعى إلى التأمل في الكون والاتصال بربه من خلال المناجاة، لذلك طلب العزلة والابتعاد عن جماعته وصديقه (سلامان) لما وجد عندهم من اختلاف في الطريقة لا تتفق معه.

ثانياً : الحدث والحبكة

يسرد لنا ابن طفيل أحداث قصته في سبعة أطوار أو مراحل يمر بها حي، لتحمل كل مرحلة فكرة معينة، يسعى إليها الكاتب وما يلفت الانتباه هو أننا نجد ربطاً جميلاً بين أحداث القصة على الرغم من أنها منقسمة إلى سلسلة من الأطوار التي

(١)حي بن يقظان – ص ٢٢٢
(٢)حي بن يقظان – ص ١٤٠
(٣)حي بن يقظان، ص ٢٢٠

يمر بها حي. أما تدرج الحدث في القصة فقد كانت الأحداث بشكل متسلسل ومرتب، فنجد حياً في بداية القصة وحيداً ينتظر مصيره، ثم ننجذب بعد ذلك مع الأحداث، لنعرف مصير (حي) بعد أن عثرت عليه الظبية، ومصيره بعد موت الظبية، ثم ترتفع تدريجياً ذروة الحدث عند تحري " حي " عن سبب وفاة الظبية، ثم نتشوق لمعرفة نتائج تأملات " حي " حتى تصل الأحداث إلى الحبكة، وهي في القصة لحظة التقاء " حي " " بإسال "، وهي قمة الذروة في الحدث، وعندما يجد القارئ نفسه مندفعاً مع أحداث القصة لمعرفة مصير حي في جزيرة إسال.

اعتمد ابن طفيل في قصته أسلوب السرد القصصي مستعيناً بالوصف كقوله " فما زال يفتش في وسط الصدر حتى ألفى " القلب " وهو مجلل بغشاء في غاية القوة مربوط بعلائق في غاية الوثاقة، والرئة من الجهة التي بدأ بالشق منها " (١)

و كذلك تميز أسلوب حي بن يقظان في سرد الأحداث بوجود عنصر التشويق في الإيراد والإثارة في السبك كما في فوقف يتعجب منه ملياً. وولّى إسال هارباً منه خفية أن يشغله عن حاله، فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء " (٢).

أما الحبكة في قصته فإنها تجمع بين تماسك الحوادث وتفككها، فالأحداث تتطور منذ بداية القصة بسرعة حتى تصل إلى موت الظبية.

عندها تبدأ الأحداث بالسير برتابة على نفس النهج، وتبقى كذلك حتى يلتقى حي(بإسال)، عندها يبدأ ابن طفيل بعرض صورة متحركة حية، حيث لقاء حي (بإسال)، ثم زيارة حي جزيرة إسال ثم العودة إلى جزيرة الوقواق ومن هذه الصور "

(١)حي بن يقظان، ص ١٣٦
(٢)حي بن يقظان، ص ٢٢١

وكان في تلك المدة حي بن يقظان شديد الاستغراق في مقاماته الكريمة، فكان لا يبرح عن مغارته إلا مرة في الأسبوع لتناول ما سنح من الغذاء، فلذلك لم يعثر عليه إسال لأول وهلة، بل كان يتطوف بأكناف تلك الجزيرة ويسيح في أرجائها، فلا يرى إنسياً ولا يشاهد أثراً فيزيد بذلك أنسه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهي في طلب العزلة والانفراد " (١)

وهكذا يتضح لنا أن ابن طفيل قد سار بالأحداث حتى وصل ذروتها " الحبكة " التي صورت لنا ما وصل إليه حي واستقر عليه بشخصيته.

و مصطلح الحبكة " يشير إلى " تخطيط " أو حبك شيء على نحو مقصود ومخطط، وهو ما يفعله القاص : فهو يحبك خيوط العمل القصصي ليوصل القارئ إلى نتيجة ما، والحدث يكتسب أهميته من خلال الشخصية الرئيسة التي يوظفها القاص لتكون مركز الاهتمام أو بؤرة الصراع " (٢) ونوع الحدث في القصة هو حدث صاعد، قد تدرج القاص من العرض إلى توضيح الأسباب ثم توصل إلى النتائج، حيث يقوم القاص بتطوير العقدة تدريجياً وبتركيز شديد. دون أن نجد تسارعاً في الأحداث إلا بداية القصة.

ثالثاً: مكان الحدث وزمانه :

لم يهتم ابن طفيل في تحديد مدة زمنية لأحداث قصته، وربما لأنه وجد تحديد الزمن أمراً غير ضروري في بناء أحداث قصته وتطورها.

ولكن برز عنصر المكان حيث مسرح الأحداث، وهو في القصة جزيرة الوقواق، المكان الذي نشأ وعاش به " حي " طوال حياته، وكما يروي لنا ابن طفيل في

(١)حي بن يقظان، ص ٢٢١

(٢)عدنان خالد عبدالله : النقد التطبيقي التحليلي – دار الشؤون الثقافة العامة – بغداد – ط١- ١٩٨٦ – ص ٧٦

بداية القصة، فإن هذا المكان لم يكن من اختراعه وإبداعه، ولكنه ورد عن المسعودي، وهو بذلك لم يكن مكاناً مجهولاً، لذلك حدد ابن طفيل مصدر خبره في بداية القصة.

الجزيرة كما يصفها ابن طفيل " وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء، وهي التي ذكر المسعودي أنها جزيرة الواقواق، لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء" (١)ونرى أن ابن طفيل قد اهتم بذكر الجزيرة في قصته حتى لا نجد لها ذكراً فيما بعد، وربما يعود ذلك إلى انه أراد ذكر المكان ووصفه لنا وذكر مناخه ليربط ذلك بأسطورة النشوء الطبيعي دون أب ولا أم، ومن جهة ثانية أراد أن يضفي على قصته طابعاً خيالياً مشوقاً يشد القارئ إليه، وهو من الأساليب الفنية الجميلة التي يعتمد عليها الأديب.

أما المكان الثاني في القصة وهي الجزيرة التي أنجبت بها شقيقة الملك طفلها حي من قريبها يقظان، وهذا حسب الرواية الثانية في القصة.

أما الجزيرة كما يصفها ابن طفيل " أنه بإزاء تلك الجزيرة، جزيرة عظيمة متسعة الأكناف، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الأزواج إذا لم يجد لها كفواً " (٢)

و المكان الثالث في القصة، هي الجزيرة التي جاء منها إسال ويحكمها سلامان، لم يفهم أهلها حقيقة الدين بشكل صحيح، وإنما اتبعوا الظاهر منه فقط " ذكروا : أن جزيرة قريبة من الجزيرة التي ولد بها حي بن يقظان على أحد القولين المختلفين

(١)حي بن يقظان، ص ١١٧
(٢)حي بن يقظان، ص ١٢١

في صفة مبدئية، انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة على بعض الأنبياء المتقدمين، صلوات الله عليهم. وكانت ملة محاكية بجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المضروبة، التي تعطي خيالات تلك الاشياء، وتثبت رسومها في النفوس "[1].

رابعاً : السرد القصصي :

اعتمد الكاتب في عرض الأحداث على السرد المباشر، حيث سمح له هذا النوع من السرد بالحركة في الأحداث دون التقيد بزمان أو مكان، ومكنه من إعطاء القدر الذي يريد من المعلومات، وعرض أفكاره بحرية دون تقييد، ولكن هذا لا يعني أن الكاتب لم يعن بأسلوب آخر في عرض أفكاره، حيث نجد أسلوب السرد المباشر يتلاشى بين الحين والآخر، ويشغل بدلاً منه " المونولوج الداخلي " أو تيار الوعي " حيزاً كبيراً، ذلك أن القصة تعرض سيرة حياة (حي) وما يتصل بها من أحداث.

مثال السرد نجده في : " ثم إنه بعد ذلك نظر إلى الكواكب والأفلاك فرآها كلها منتظمة الحركات، جارية على نسق، ورآها شفافة ومضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد، فحدس حدساً قوياً أن لها ذوات سوى أجسامها، تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود " [2]

(١)حي بن يقظان، ص ١٣٩
(٢)حي بن يقظان، ص ١٨٤

ومثال " تيار الوعي " فقال في نفسه "ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه، وإن كان قد أساء في قتله إياه وأنا كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمي !" (١)

خامساً : الأسلوب :

الأسلوب هنا المفردات والتراكيب، أي " نقصد بالأسلوب إذن أمرين محددين: الأول هو المفردات التي يستخدمها الأديب، والثاني هو تراكيب جملة (ترتيب تلك المفردات في جمل) " (٢)

أما المفردات في قصة حي بن يقظان فكانت أقرب إلى السهل المفهوم من المعقد وأظنه استخدم مفردات شائعة الاستعمال في زمنه، لأننا نقرأ قصته اليوم ولا يستوقفنا الكثير من المفردات غير المفهومة، فإذا تأملنا هذه الفقرة.

" وكان يرى أترابه من أولاد الظباء، قد نبتت لها قرون، بعد أن لم تكن وصارت قو ية بعد ضعفها في العدو، ولم ير نفسه شيئاً من ذلك كله، فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه، وكان ينظر إلى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم وكان ايضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سا ئر الحيوان، فيراها مستورة : أما مخرج أغلظ الفضلين فبالأذناب، وأما مخرج أرقهما فبالأوبار وما أشبهها " (٣)

(١)حي بن يقظان، ص ١٣٩
(٢)عدنان خالد عبدالله : النقد التطبيقي التحليلي – ص ٩٣
(٣)حي بن يقظان، ص ١٣٠

نجد من خلال الفقرة السابقة أن أسلوب ابن طفيل يميل إلى استخدام المفردات السهلة البسيطة، وكذلك اختيار اللفظ شائع الاستعمال مثل " مخارج الفضول " على أن تكون مهذبة غير وحشية.

أما تراكيب الجمل وترتيب المفردات، فقد مال ابن طفيل إلى إنشاء الجمل القصيرة، وقليلاً ما يلجأ إلى أن تطول الجملة عنده، وهذا التركيب من الجمل القصيرة يبعد الرتابة والإحساس بالملل عند القارئ.

"كما أن طول الجمل أو قصرها، يمنح القارئ حساً بإيقاع الجمل الذي ينشأ أصلاً من تكرار أصوات معينة تعزز من المعنى العام الذي توحيه بقية عناصر النتاج الأدبي"(١)

أما نوع الجمل عنده من حيث اسمية أو فعلية، فقد رأيت أن أغلب جملة في القصة فعلية، ومثال ذلك " فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة – وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو – وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها، إنما هي عضو غائب عن العيان" (٢)

وأرى أنه قد أحسن حين جعل أغلب الجمل فعلية، لتعبر عن طابع الحركة والنشاط الذهني والفكري عند حي بن يقظان، هذا النشاط الذي لم يتوقف طوال أحداث القصة.

تظهر بين تراكيب الجمل من حين إلى آخر جمل قد يحتاج القارئ إلى النظر فيها أكثر من مرة ليستطيع فهمها. ليس بسبب صعوبة ألفاظها، ولكن لاستخدامه

(١)د. عدنان خالد عبدالله : النقد التطبيقي التحليلي – ص ٩٥
(٢)حي بن يقظان، ص ١٣٣

أحياناً لغة تكاد تكون أقرب إلى لغة العلم والفلسفة من الأدب ومثال ذلك " وكان يرى أن الهواء إذا ملئ به زق جلد، وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود، وتحامل على من يمسكه تحت الماء، ولا يزال يفعل حتى يوافي موضع الهواء، وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن وينزول عنه ذلك التحامل والميل إلى جهة العلو الذي كان يوجد منه قبل ذلك" (١)

فإن كان أسلوب ابن طفيل في عرض أفكاره أسلوباً أدبياً رفيعاً عرف كيف يختار الكلمة وينسقها، فلا ننسى أنه أيضاً طبيب وعالم وفيلسوف، ولا بد أن تظهر آثار علمه وفلسفته جلية على النص وإن كانت في قالب أدبي.

سادساً: المغزى :

والمغزى هو العبرة أو الدرس أو العظة الأخلاقية التي يستخلصها القارئ بعد قراءة النص الأدبي، وأرى ان العبرة والمغزى من العمل الأدبي الذي قدمه ابن طفيل كان واضحاً من خلال النسيج الأدبي الذي قدم إلينا.

حيث نجد أن ابن طفيل لم يقدم صيغاً جاهزة أو توجيهاً مباشراً إلى أفكاره، بل صاغ هذه الأفكار بصور متعددة، حاول فيها إقناع العقل وإثارة التفكير متدرجاً مع القارئ حتى يصل به إلى الهدف وهو المغزى من رسالته، والمغزى من رسالة ابن طفيل كما أشار اليها في بداية رسالته هو أن الوصول إلى الإيمان الحقيقي بالله عز وجل يكون عن طريق الإرادة والتفكير وإعمال العقل، وليس بإماتة الحواس وإنكار التفكير، كذلك نخرج من هذه الرسالة بمغزى عظيم وهو وجوب حب الله

(١)حي بن يقظان، ص ١٥٤

ﷻ الذي تظهر قدرته وعظمته ورحمته بكل ما يحيط بنا من أمور، فإذا نظرنا إلى " حي بن يقظان"

نهاية القصة نجد أنه بفطرته وتفكيره أحس بعظمة الله عز وجل، وأحبه وحاول جاهداً أن يرضي الله ﷻ في أفعاله، فمثلاً " قد ألزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة مضرة أو ذا عائق من الحيوان أو النبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها، فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال " (١)

" فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده في شرط الغذاء وندم على فعله، وأراد الانفصال عن إسال... " (٢)

الخصائص الأدبية والفنية في الرسالة

سنحاول استعراض اهم السمات الفنية لرسالة ابن طفيل :

اولاً : الإطناب :

تبدو واضحة بارزة سمة الإطناب عند ابن طفيل في رسالته حيث أخذ يميل إلى بسط القول وتفصيل المعاني في جمل عديدة وعبارات متنوعة منها:" ثم ينظر إلى الأجسام التي لا تحس ولا تتغذى ولا تنمو، من الحجارة والتراب، والماء، والهواء، واللهب، فيرى انها أجسام لها طول وعرض وعمق وأنها لا تختلف، إلا أن بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حاد وبعضها بارد، ونحو ذلك من

(١)حي بن يقظان، ص ١٥٠
(٢)حي بن يقظان، ص ٢٢٣

الاختلافات وكان يرى أن الحار منها يصير بارداً، والبارد يصير حاراً، وكان يرى الماء يصير بخاراً، والبخار ماء، والأشياء المحترقة تصير جمراً، ورماداً ولهيباً، ودخاناً، والدخان إذا وافق في صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الأشياء الأرضية "[1]

وبالنظر إلى الفقرة السابقة نجد أن ابن طفيل قد كرر المعنى وتحدث عن الفكرة نفسها وهي أن الجمارات التي لا روح فيها تختلف في الشكل والمصير، فأسهب بالحديث ومال إلى الأطناب وتفصيل القول في الموضوعات التي لا تحتاج إليه، وهذا مما يدفع إلى التأمل والنظر في أسباب هذه السمة، وأجد أن ميل الكاتب إلى البساطة والوضوح والسهولة وعرض أفكاره مفصلة واضحة بعيدة عن التعقيد، جعله يميل إلى الإطناب ليحقق هذا الغرض، وربما أن الموضوع الذي تناوله في رسالته قد احتاج إلى الإطناب ذلك أنه كان يدعو إلى التأمل والتفكير في جميع المخلوقات حوله وتحليل ما يرى حوله ثم الاستنتاج، للوصول إلى الإيمان الخالص بالخالق عز وجل عن طريق العقل الذي لا بد من أدلة وبراهين ليرسخ الاعتقاد والإيمان به ثم بالقلب.

وابن طفيل في رسالته المطولة خاطب العقل والفطرة الإنسانية معاً. والإطناب في رسالة ابن طفيل لا أجد أنه قلل من قيمتها الفنية أو قدر صاحبها، لأنه استطاع صوغ رسالته بأسلوب أدبي معبر ليس فيه ما يدعو إلى الانتقاص، بل على العكس هذا الإطناب دلالة على سعة أفق ابن طفيل وغزارة معرفته في اللغة والأدب والطب والنبات والفلك والفلسفة.

(١)حي بن يقظان، ص ١٥٢

ثانياً : الاقتباس من القرآن والحديث الشريف :

حرص ابن طفيل على الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشريف، وهذا يدل على أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في نفوس الأندلسيين والأدباء منهم بخاصة، لأن الأدب مرآة تعكس لنا سمات المجتمع، وابن طفيل حين حاول عرض أفكاره من خلال رسالته، كان لا بد له من الرجوع إلى القرآن والسنة لأن الموضوع الذي يكتب فيه يحمل الطابع الديني، إضافة إلى أن ابن طفيل كان من الأدباء والفلاسفة المتمسكين بالدين وكان يشده إلى القرآن الكريم أواصر التعلم والتعليم بالإضافة إلى أواصر الدين والتعبد.

ومن تلك الأسباب التي دفعت ابن طفيل للاقتباس من القرآن الكريم هو ما يتميز به القرآن الكريم من العموم والشمول في معالجة الموضوعات والقضايا المختلفة المتعلقة بحياة الناس أفراداً وجماعات مما أدى إلى أن يكون دستوراً للمسلمين في كل زمان ومكان.

ومن أمثلة اقتباس ابن طفيل من القرآن الكريم : [١]

قوله تعإلى : وفي محكم التنزيل) فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى) [٢]

وفي موضوع آخر (وإذا كان فاعلاً العالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به [٣] ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير ") [٤]

(١)ابن طفيل – حي بن يقظان ص ١٦٤

(٢)سورة الأنفال، الآية ١٧

(٣)حي بن يقظان، ص ١٧٢

(٤)سورة الملك آية ١٤

(فكذلك العالم كله، معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان [1] [إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون]) [2]

[لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر] [3]

[كل شيء هالك إلا وجهه] [4]

[أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى] [5]

و من أمثلة تضمينه من الحديث الشريف، قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) [6] حديث أخرجه البخاري وقوله صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق آدم على صورته) [7]أخرجه البخاري.

ثالثاً : سهولة الألفاظ وبعدها عن الغريب :

من السمات التي تميزت بها رسالة ابن طفيل السهولة والوضوح. والبعد عن الغريب والمعقد وكنت قد تحدثت عن سهولة الألفاظ عند الحديث عن أسلوب ابن طفيل من قبل، ويمكن تفسير اختيار ابن طفيل للفظ السهل والواضح، هو

(١)حي بن يقظان، ص ١٧٥
(٢)سورة يس الآية ٨٢.
(٣)سورة سبأ الآية ٣.
(٤)سورة القصص الآية ٨٨.
(٥)سورة طه الآية ٥٠.
(٦)حي بن يقظان، ص ١٦٤
(٧)حي بن يقظان، ص ١٢٥

تأثره بالبيئة الأندلسية التي تميل إلى السهل الواضح وتنفر من التعقيد في كل أسلوب من أساليب حياتها وخاصة في قضايا الفكر والأدب، وسهولة الالفاظ عند ابن طفيل تجعل رسالته أقرب إلى البيئة وأصدق في التعبير، ولكن على الرغم من ذلك نجد بعض الألفاظ القليلة التي تحتاج إلى تفسير وشرح ورجوع إلى المعاجم مثل :

" خرج من كناسه فحمله العقاب، فلما سمعت الصوت ظنته ولدها " [١]فمعنى كناسه هنا تعني بيته والكناس كما وردت في الوسيط بمعنى موَلجّ في الشجر يأوي إليه الظبي.

وكذلك معنى الأمشاج في " وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج " وتعنى الأمشاج هنا الأنسجة، وجاءت في الوسيط بمعنى كل شيئين مختلطين. [٢]

رابعاً : الخيال :

و الخيال في أبسط تعريفه وحدوده هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها تختزلها عقولهم كامنة في مخيلتهم حتى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها.." [٣]

ورسالة ابن طفيل كانت من الرسائل المطولة التي قامت على الخيال أصلاً، حيث انطلقت من فكرة خيالية لتنسج عالماً مفترضاً يتيح للكاتب التعبير عن أفكاره وفلسفته، وإذا نظرنا إلى الأسباب والدواعي التي أدت إلى لجوء الكاتب إلى خياله الخصب، هو أن المعاني والأفكار التي أراد أن يعالجها لم تستطع الألفاظ المباشرة

(١)حي بن يقظان، ص ١٧٢

(٢)المعجم الوسيط / ج / ٢ / ص ٨٧٠

(٣)شوقي ضيف، في النقد الأدبي – ط٢ – دار المعارف بمصر – ص ١٦٧

والأساليب القائمة على الحقيقة أو حتى التعبير المجازي أن ينقل أحاسيسه وأفكاره ورسالة "حي بن يقظان " بكر لما تضمنته من صور وتعابير ولوحات خيالية ومشاهد تعتمد التصوير البارع الدقيق والتعبير الذي ينقل القارئ أو المستمع إلى الجو الذي أراده الأديب أو كان يعيشه ويتطلع إليه، لقد كان ابن طفيل يهدف في اعتماده على الخيال كعنصر هام، إلى تبسيط قصة المعرفة والوعي الإنساني وكشف أسرار الفلسفة والحكمة الإشراقية، وانتقاد مجتمعه الذي ابتعد عن الدين في غمرة استغراقه باللهو وجمع الثروات، وهذه أغراض لا تستطيع الألفاظ المباشرة التعبير عنها واستيعابها كما لا تستطيع أن تحقق شيئاً مما أراد ابن طفيل الأديب، لذلك لجأ إلى الخيال عنصراً مهماً في تعابيره واستطاع أن يقدم أفكاره وفلسفته وانتقاداته بقالب فني راق.

ولا ننسى أن الظروف السياسية والاجتماعية وما كانت عليه الأمور من تغير وتبدل وقلق واضطراب، كل ذلك كان له من الآثار ما دفع الكاتب إلى الخيال لينجو من الحساب أو يتسلل عن طريقه إلى التعبيرعن أهدافه من غير أن بفسح المجال لمهاجمته أو التنكيل به، ويمكن أن يضاف إلى هذا كله موقف أدباء الأندلس من الأدب المشرقي وحرصهم على أن يطوروا في فنونهم وأساليبهم بما يشعرهم بتحقيق أغراضهم في التفوق على نظرائهم المشارقة.

خامسا: العاطفة :

ونقصد بها الانفعالات وألوان التعبير عن خلجات النفس والشعور بما يحس به الأديب ويتأثر بمشاهده أو ينفعل مع صوره ومظاهره فيندفع معبراً عن ذلك كله في آثاره الأدبية في الشعر والنثر.

والعاطفة عنصر مهم من عناصر الأدب، وأساس متين من أسس بنائه وقواعد كيانه بها امتاز عن الفنون والمعارف والعلوم الأخرى، وباحتوائها والاعتماد عليها استطاع الأدب أن يكسب صفة الدوام والاستمرار مع الحيوية، والقدرة الفائقة على إثارة المشاعر وإيقاظ مكامن النفس ونوازعها الوجدانية المختلفة.

وتبدو العاطفة واضحة متميزة في قصة " حي بن يقظان "، حيث يظهر لنا حزن وجزع " حي بن يقظان " في مواضع، وأنسه في مواضع، ثم تبدو عاطفة الشفقة على المخلوقات حوله في موضع آخر، أما عاطفة شعوره بالذات الإلهية وشوقه لرؤيته فكانت العاطفة الأبرز.

أهم العواطف الواردة في القصة

اولاً :عاطفة حب (حي) وتعلقه بالظبية منذ أوجدته حتى موتها " فإنها لم تفارقة ولا فارقها،إلى أن كبرت وضعفت،فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويجتني لها الثمرات الحلوة ويطعمها " (١)

ثانياً : عاطفة الحزن والجزع على الظبية عند موتها :

".. جزع جزعاً شديداً، وكادت نفسه تفيض أسفاً عليها فكان يناديها بالصوت الذي كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه، ويصيح بأشد ما يقدر عليه،فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغييراً "(٢)

ثالثاً : عاطفة حنينه للظبية بعد موتها :

" إن كل واحد منهما إنما يحركه ويصرفه شيء، هو مثل الشيء الذي كان يحرك أمه ويصرفها، فكان يألف الظباء ويحن إليها لمكان ذلك الشبه " (٣)

(١)حي بن يقظان، ص ١٣٢

(٢)حي بن يقظان، ص ١٣٣

(٣)حي بن يقظان، ص ١٣٩

رابعاً : عاطفة الشوق لاكتشاف المجهول، ومعرفة كل جديد لا يعرفه. وهذه العاطفة تبدو ملازمة لحي بن يقظان منذ بداية القصة.

" وإنما تفنن في هذه الأمور كلها في وقت اشتغاله بالتشريح، وشهوته في وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان " (١)

" فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء"(٢)

خامساً : عاطفة إعجاب حي بن يقظان بالأجسام السماوية، محاولا الاقتداء بها " ثم أخذ في العمل الثاني، وهو التشبه بالأجسام السماوية والاقتداء بها، والتقبل لصفاتها، وتتبع أوصافها " (٣)

سادساً : عاطفة الشفقة على سائر المخلوقات، حيث تعهدها بالعناية والرعاية. " إذ ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة، أو ذا عائق من الحيوان أو النبات، وهو يقدر على إزالتها عنه إلا ويزيلها " (٤)

سابعاً : عاطفة الخوف من الموت إذا جاء وهو في حال الإعراض " وكان يخاف أن تفجأه منيته وهو في حال الإعراض،فيفضي على الشقاء الدائم، وألم الحجاب.فساءه حاله ذلك، وأعياه الدواء " (٥)

ثامناً : عاطفة الفخر والاعتزاز بذاته لأنه أشرف المخلوقات.

" قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح، الشبيه بالأجسام السماوية وتبين أنه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان، وأنه إنما خلق لغاية أخرى، وأعد لأمر عظيم، لم يعد له شيء من أنواع الحيوان" (٦)

---

(١)حي بن يقظان، ص ١٤٧

(٢)حي بن يقظان، ص ٢٢١

(٣)حي بن يقظان، ص ١٩٧

(٤)حي بن يقظان، ص ١٩٨

(٥)حي بن يقظان، ص ١٨٣

(٦)حي بن يقظان، ص ١٨٩

تاسعاً : عاطفة التعلق بالذات الإلهية والشوق والحنين لرؤيته " فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع ويترك المصنوع، حتى اشتد شوقه إليه، وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس، وتعلق بالعالم الأرفع المعقول "(١)

عاشراً : عاطفة شعوره بوجود الخالق وتعظيمه وإجلاله عز وجل " ثم إنه مهما نظر شيئاً من الموجودات من حسن، أو بهاء، أو كمال، أو قوة، أو فضيلة من الفضائل – أي فضيلة كانت – تفكر وعلم أنها من فيض ذلك الفاعل المختار – " جل جلاله " ومن وجوده، ومن فعله، فعلم أن الذي هو في ذاته أعظم منها، وأكمل، وأتم وأحسن، وأبهى، وأجمل وأدوم وأنه لا نسبة لهذه إلى تلك فما زال يتبع صفات الكمال كلها، فيراها له وصادرة عنه، ويرى أنه أحق بها من كل ما يوصف بها دونه " (٢)

لقد كانت العاطفة بارزة بوضوح في الرسالة، واستطاع ابن طفيل من خلالها أن يخاطب الوجدان والفطرة السليمة عند كل قارئ لرسالته، وهذا ما يميز ابن طفيل في عرضه فكره وفلسفته حيث جمع بين الجملة والمنطق، ومخاطبة العقل بأسلوب علمي وبين الخيال والعاطفة واللغة الرفيعة بأسلوب أدبي رفيع.

(١)حي بن يقظان، ص ١٧٧

(٢)حي بن يقظان، ص ١٧٧

الفصل الثالث

حي بن يقظان في ميزان النقد

إن رسالة حي بن يقظان كانت تحمل فكراً فلسفياً تبين أنه لا خلاف بين الشريعة والعقل، وهو الفكر الفلسفي الذي دعا اليه ابن سينا قبلة وكذلك ابن رشد، ولكن ما يميز رسالة حي بن يقظان، ذلك القالب الأدبي الرائع الذي صيغت به، حيث يقول أحمد أمين "... ثم نحن لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية وجدنا أن ابن طفيل أرقى من ابن سينا من حيث اللغة والأدب، فابن طفيل كان مثقفاً ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا، ففي كثير من عبارات ابن سينا وألفاظه ما يدل على أنه كان يستقي معلوماته اللغوية من المعاجم، لا من كتب الأدب، فجاءت في بعض الأحيان نابية. أما ابن طفيل فيستقي معلوماته اللغوية والأدبية من كتب الأدب والمثقفين بها، فجاءت عباراته أنصع وابلغ " (١)

و هذا زكريا بشير يقول " إن حي بن يقظان " لها جوانب كثيرة في مجال الأدب والفن والثقافة العامة، ولكن تبقى المزية الأساسية للقصة مزية فلسفية خالدة " (٢)

إذن حي بن يقظان كان عبارة عن قصة في الأدب العربي عند كثير من النقاد والمفكرين غير أن بعضهم اعتبرها رسالة فلسفية، ومنهم الدكتور سامي حاوي حيث ذهب إلى أنها رسالة في الفلسفة وليست قصة رومانسية أو رمزية، فذهب إلى تقسيمها إلى أربعة أقسام، فجعل المقدمة في القسم الأول، وجعل الحقبة الطبيعية في القسم الثاني، والقسم الثالث للحقبة الصوفية، وجعل القسم الرابع

(١)أحمد امين : ذخائر العرب – حي بن يقظان – دار المعارف ط : ؟ ص ٣٥.

(٢)زكريا بشير " تاريخ الفلسفة الإسلامية – الدار السودانية للكتب – ط الأولى – ١٩٩٨ – ص ٤٢٤

للتوفيق بين الفلسفة والدين، ثم أخذ يحدد الأسباب التي توصل إليها إيليا الحاوي وهي :

١. رغبة ابن طفيل في تقديم فلسفة إلى الجمهور بطريقة غير مباشرة.
٢. إن التجربة الصوفية تجربة واقعية، لذلك ينبغي التعبير عنها بطريقة واقعية.
٣. إدراك ابن طفيل تأثير القصة على القارئ العربي.
٤. حتى تكون مؤثرة بشكل أكبر في القارئ العربي فالجو القصصي يخلق شيئاً من الإثارة للقارئ يدفعه إلى مصاحبة (حي) في مغامرته [١]

و التعريف العام للقصة هي " قالب من قوالب التعبير، يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معنية تجري بين شخصية وأخرى أو بين شخصيات متعددة، مع مراعاة عنصر التشويق " [٢]

وللأسلوب القصصي : "معنى عام يشمل بناء القصة كله بجميع مواده وعناصره ومعنى خاص يقف عند التعبير ووسائله اللغوية وخصائصه اللفظية " [٣] فإلى أي مدى تنطبق هذه الخصائص والمقومات على قصة حي بن يقظان.

اولاً : الحدث والحبكة :

لقد كانت الأحداث مرتبة عند ابن طفيل حسب أولويتها زمنياً منذ ولادة حي واحتضان الظبية له حتى نهاية القصة، ونجد أن في رسالة ابن طفيل حكاتين، الأولى تروي خبر الملك الذي رفض تزويج أخته من قريبها، لذلك تزوجت سراً

(١)انظر كتاب حسين محمود عباس – حي بن يقظان – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ط ١ – من ص ٦٨ إلى ص ٧١.
(٢)داود غطاشة وحسين راضي : قضايا النقد العربي – مكتبة دار الثقافة، ط ٢، ص ١٢٤
(٣)شوقي ضيف " في النقد الأدبي – دار المعارف بمصر – ط ٢ – ص ٢٢٥

وأنجبت حياً، والثانية تروي حكاية حي في جزيرة الواقواق، ولا يربط بين الحكايتين سوى " حي " أما سير الأحداث، فكان فيه تتابع وتسلسل دقيق، حيث يذكر النتائج بعد ذكر الأسباب، ولا مجال للصدفة في أحداثه إلا قدر المعقول وبما يخدم غرض الكاتب وفكرته، مثل اكتشاف حي للنار حيث انبنى عليه نتائج عديدة ساعدت في توضيح فكر ابن طفيل، حيث وجد بعد اكتشاف النار أنها تختلف عن غيرها في اتجاه حركتها إلى أعلى، لذلك قرر أنها من جوهر الأجسام، وإنها من الأشياء العلوية، وكما كانت الأحداث مرتبة بتسلسل، فإنها حملت أفكاراً تعاقبت بترتيب منطقي بحيث لا تأتي الفكرة إلا من فكرة سابقة لها " إن تعاقب الأفكار وسيادتها على الجو العام هما المظهران البارزان اللذان يطغيان على ما عداهما " (١)

غير أننا نلاحظ أحياناً، أن تعاقب الأفكار بهذه الرتابة، يحملنا على شيء من التوتر والملل أحياناً، وعلى الانشراح والتفاؤل مرة ثانية، وذلك كالأزمة التي عاشها (حي) وهو يتفكر في خلق العالم وحدوثه، فكان كلما وصل إلى نتيجة وحل يجد أمامه عارض.

إذن يمكننا القول إنها قصة تحفل بوجود صلة منطقية بين أحداثها تدفع بها إلى الرقي، والتدرج في عرض الأحداث وحسن الربط بينها أمر يحسب لابن طفيل في هذا العمل.

ثانياً : الشخصيات :

(١)حسن محمود عباس : حي بن يقظان – ص ٧٧.

يوجد في القصة ثلاث شخصيات " شخصية حي " وهي الشخصية الرئيسة ومحور الأحداث، وشخصية " إيسال وسلامان " وهما شخصيتان ثانويتان، حيث تمثل شخصية إيسال حالة التوسط بين " الفقه الظاهري والفلسفة "، أما سلامان فيمثل الفقه الظاهري.

أما شخصية حي فتمثل الفيلسوف الذي اتخذ من الطبيعة معلماً له، حيث كانت شخصية حي مؤثرة في الأحداث، لقد وفق ابن طفيل في إظهار ملامح شخصيته وتصويرها بشكل دقيق في كل المراحل الزمنية التي مرت بها. أما من حيث واقعية الشخصية أو بعدها عن الواقعية، فهي تبعد عن الواقعية في المراحل الأولى عند ولادته وتربية الظبية له، ولكنها تبدو قريبة من الواقع بعد سن الطفولة، أما الطريقة التي اتبعها ابن طفيل في تشخيص قصته فكانت تجمع بين الشكل المباشر (تحليلي) " وهي التي يصور الكاتب فيها أشخاصه من الخارج، ويحلل عواطفهم ودوافعهم وأفكارهم وإحساساتهم، وكثيراً ما يصدر أحكامه عليهم " [1]والشكل الثاني هو غير المباشر " التمثيلية " وهي الطريقة التي تكشف بها الشخصية عن نفسها بواسطة الكلام والأفعال، لقد جمع ابن طفيل بين الشكلين في تشخيصه لحي بن يقظان واعتمد على الشكل الأول أكثر، غير أن النقاد في العصر الحديث يجيدون الطريقة غير المباشرة (التمثيلية) لانهم وجدوا أن الشخصية يجب أن تكشف نفسها أكثر مما تحلل من الخارج.

أما الأبعاد التي قدم بها ابن طفيل بطله فكانت ثلاثة أبعاد وهي :

(١)داود غطاشة وحسين راضي : قضايا النقد العربي – ص ١٢٦

البعد الخارجي، حيث المظهر العام لشكله وهيئته وسلوكه الظاهر مثل " وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنن في وجوه حيله، واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها، واحتذى بها[١]

وكذلك ما قدمه لنا من خلال **البعد الداخلي** : حيث صور لنا أفكاره وعواطفه وما يصدر عنها من أفعال مثل " وقد رسخ في قلبه من أمر هذا الفاعل، وأشغله عن الفكرة في كل شيء إلا فيه، وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها ". [٢]

البعد الاجتماعبي: حيث صور لنا الظروف التي احاطت بحي بن يقظان في الجزيرة عندما ذهب إليها. " فانصرف إلى سلامان وأصحابه، فاعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ إليهم منه، وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم"[٣] أما شخصية إيسال، فكانت شخصية ثابتة سطحية جامدة مع أحداث القصة وكذلك شخصية سلامان، لقد أحسن ابن طفيل عندما أدخل شخصية إبسال في أحداث القصة فكان ذلك كسراً للرتابة والملل الذي قد يدخل إلى نفس القارئ في متابعة حياة رتيبة لشخص واحد، وشخصية إيسال وسلامان وإن كانتا ثانويتين إلا أنهما ساعدتا على كشف جوانب خفية في شخصية " حي " والتأكيد على أفكاره.

ثالثا: الأسلوب :

وهو " طريقة الكاتب في صياغة جملة واختيار كلماته للتعبير عن فكرته، أو رسم الصورة المتخيلة في ذهنه " [١] " لقد كان أسلوب ابن طفيل سهلاً واضحاً، وقد

(١)حي بن يقظان، ص ١٤٦
(٢)حي بن يقظان، ص ١٧٧
(٣)حي بن يقظان، ص ٢٣٤

استخدم لغة أدبية تنم عن ذوق رفيع على الرغم من صعوبة أفكاره التي تحتاج إلى دقة وعدم استطراد والتزام بالمصطلح المتعارف عليه عند المفكرين والفلاسفة، لقد صاغ ابن طفيل أفكاره الفلسفية بقالب فني قصصي جميل، وهذا يدل على ثقافته في اللغة والأدب، إذن جاءت مفردات ابن طفيل وتراكيبه واضحة سهلة الفهم، عبرت عن أفكاره فأحسن في اختيار اللفظ السهل البعيد عن الركاكة.

أما استعمال ابن طفيل المحسنات البديعية، فكان بحدود الاستساغة والقبول والانسجام مع الذوق الأدبي الرفيع والطبع السليم، فبرز استخدامه للسجع، حيث كان له حسن الوقع على السمع، مع خفة في النطق، ليحقق الغرض المطلوب وهو الجمال الفني في النص، والتأثير على القارئ في نقل مشاعر الانفعال منها : " ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص، ما لم يقم قط بباله وورآها في آلام لا تنقضي، وحسرات لا تنمحي، قد أحاط بها سراديق العذاب، وأحرقتها نار الحجاب، ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب " [٢] وكذلك في " والضرب الثالث : أوصاف لها بالإضافة إلى الموجود الواجب الوجود، مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة، وتعرض عنه، وتتشوق إليه، وتتصرف بحكمة وتسخر في تتميم إرادته، ولا تتحرك إلا بمشيئته وفي قبضته"[٣]

إلا أن ابن طفيل رصدت له بعض الأخطاء اللغوية كما يقول د. حسن محمود عباس، منها أخطاء طفيفة في اللغة والأسلوب ومنها قوله : " حذقته العلوم، وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتولى "،و كان عليه قول حذق العلوم، وما زال الهزال والضعف يستوليان عليها ويتواليان [٤]

(١)داود غطاشة وحسين راضي : قضايا النقد العربي – ص ١٣٦
(٢)حي بن يقظان، ص ٢١٤
(٣)حي بن يقظان، ص ١٩٧، ١٩٨
(٤)انظر كتاب حسن محمود عباس : حي بن يقظان، ص ٨٠ – ٨١

أما الأخطاء الفنية، فكانت في تدخل ابن طفيل أحياناً في أثناء سرد الأحداث تدخلاً مباشراً، فنجده يبدأ في مخاطبة القارئ بشكل مباشر مثال " فاصغ الآن بسمع قلبك، وحدق ببصر عقلك، إلى ما أشير به إليك، لعلك إن تجد منه هدياً يلقيك على جادة الطريق. وشرطي عليك ألا تطلب مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودع هذه الأوراق " (١)

و لكن هذه الأخطاء لا تقلل من قيمة القصة وروعتها الفنية التي تصل إلى درجة عالية في الأدب العربي، حيث أحسن اختيار اللفظ ثم وضعه في تراكيب حسنة، بسيطة.

لذلك اعتبرها أكثر النقاد عملاً أدبياً قدم بأسلوب رشيق " وكما تمتاز قصة ابن طفيل من الناحية الفلسفية، فإنها تمتاز ايضاً عن غيرها من القصص الفلسفية الشرقية بالقرب من الحقيقة الواقعية وبالوصف الطبيعي والتفصيلات الدقيقة عن الحياة العلمية. هذا عدا رشاقة الأسلوب وسهولة العبارة وحسن التركيب وهي بهذه المزايا تعتبر لا شك في مقدمة الآثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ الفكر البشري "(٢)

(١)حي بن يقظان،ص ٢٠٧

(٢)جميل صليبا وكامل عياد : حي بن يقظان لأبن طفيل – دراسة وتحليل – دار النشر العربي– دمشق ط ٢ ص ٤١

الخاتمة

* إنّ فكر ابن طفيل الذي قدمه في رسالته كان نتاج تجربته وخبرته، وقد آثرنا الحديث عن الجانب الفني في هذه الرسالة، حيث أن كاتبها وصل بها إلى درجة الاتقان في الفكر والفلسفة والأدب، وقد حاول ابن طفيل من خلالها إثبات الحكمة المشرقية التي تدعو إلى التأمل والتفكير المجرد، من حياة المادة، وأن هذه الحكمة لا تتعارض مع حكمة الشرع. بل كلاهما يدعو إلى عبادة الله عز وجل غير أن الحكمة المشرقية تدعو إلى التحرر من أثقال البدن وتدعو إلى التقرب من الله وعبادته. حيث حملت في ثناياها قصة حي بن يقظان بأسلوب أدبي رائع، لم يكن ابن طفيل مقلداً لغيره من الأدباء حيث أحسن اختيار اللفظ وصياغة التراكيب وسرد الأحداث وهذه القصة تمثل نموذجا للقصة الفنية التي تطورت بعد ذلك في أوروبا حتى وصل هذا الفن القصصي إلى مكانة مرموقة في دنيا الأدب فضلاً عن بروز الجانب الفلسفي في هذه الرسالة الذي تركناه إلى أهل الاختصاص ليقدموه لنا نموذجا مشرقاً لما وصل إليه الفكر والأدب في ذلك العصر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابراهيم ابراهيم هلال : نظرية المعرفة الإشراقية وأثرها في النظرة إلى النبوة – الجزء الأول – دار النهضة العربية – ١٩٧٧ م.
- ابن طفيل : حي بن يقظان – حققه د. فاروق سعد – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط٦ – ١٩٩٥
- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي – صبح الأعشى في صناعة الإنشا – نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية – وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة العلمية المصرية – مطابع كوستا تسوماس – القاهرة.
- إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين – دار الشروق – عمان – الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- أحمد أمين : حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهرودي: تحقيق وتعليق أحمد أمين – دار المعارف للطباعة والنشر – ط : ؟
- أحمد بن أحمد المقري التلمساني : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. الجزء الأول – حققه وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد دار الكتاب العربي – بيروت – ط : ؟
- أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي – دار الثقافة – بيروت – الطبعة التاسعة والعشرون ١٩٨٥ م.
- أحمد هيكل : الأدب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – دار المعارف للنشر – الطبعة السادسة ١٩٧١ م.

- **إميلو غرسية : الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه – ترجمة حسين مؤنس – مكتبة النهضة المصرية – الطبعة : ؟**
- **جرجي زيدان : تاريخ أدب اللغة العربية – الجزء الثالث – دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٦٧ م.**
- **جميل صليبا وكامل عياد : حي بن يقظان لابن طفيل دراسة وتحليل – دار النشر العربي – دمشق – الطبعة الثانية ١٩٣٩.**
- **جودت الركابي: في الأدب الأندلسي (مكتبة الدراسات الأدبية) – دار المعارف بمصر – الطبعة الثالثة.**
- **حسن محمود عباس : حي بن يقظان وروبنسون كروزه – دراسة مقارنة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الأولى ١٩٨٣ م.**
- **حكمة علي الأوسي : الأدب الأندلسي في عصر الموحدين – مكتبة الخانجي بالقاهرة – رقم تسلسل التعضيد ١٥ للسنة ٧٥، ١٩٧٦**
- **حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي – المكتبة البولسية – بيروت – الطبعة الثانية.**
- **حنا الفاخوري : الجديد في الأدب العربي – ج ٥ – مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني – الطبعة الاولى.**
- **داود غطاشة وحسن راضي : قضايا النقد العربي قديمها وحديثها – مكتبة دار الثقافة – عمان –الطبعة الثانية ١٩٩١ م.**

- رضوى عاشور، حي بن يقظان فصول مج ٤ يوليو – اغسطس – سبتمر ١٩٨٥ م
- زكريا بشير : تاريخ الفلسفة الإسلامية – الدار السودانية للكتب – الطبعة الأولى ١٩٩٨م
- عاطف العراقي الميتافيزيقيا فلسفة ابن طفيل – دار المعارف القاهرة ط ٤ ١٩٨٥
- شوقي ضيف : في النقد الأدبي – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية.
- عبدالله الفيفي في بنية النص الاعتباري (قراءة جيولوجية لبنأ حي بن يقظان)، أبحاث اليرموك، سلسة الآداب واللغويات، إربد، مج ٧، ع ١، ١٩٩٩
- عدنان خالد عبدالله : النقد التطبيقي التحليلي – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.
- عمر فروخ : تار يخ الأدب العربي – ج ٥ – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الأولى.
- علي ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب – دار المنصور للطباعة والورقية – الرباط – ١٩٧٢ م.
- عويضة كامل، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣، ط ١، ١٩٩٣ م.
- فاروق السعد، ابن طفيل حي بن يقظان، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٦، ١٩٩٥م.

- **محمد عاطف العراقي : نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٩٢ م.**
- **محمد غنمي هلال : النقد الأدبي الحديث – دار نهضة مصر – ١٩٩٧م.**
- **مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه – دار العلم للملايين بيروت – الطبعة الثانية.**
- **مصطفى الشكعة : بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية ومكتبة القاهرة – ١٩٩٥ م**
- **المعجم الوسيط – ج ٢ – قام بإخراجه – إبراهيم مصطفى، احمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار – أشرف على طبعه عبد السلام هارون – المطبعة العلمية.**